لماذا تبرّعت إنجلترا بوعد بلفور ؟

د.حازم صابوني

لماذا تبرّعت إنجلترا بوعد بلفور ؟

محطات تاريخية في الصراع المادي مع اليهود

القرن السابع قبل الميلاد الربا أمر إلهي **!!**

هذا ما جاء في العهد القديم / كتاب التثنية 23: 19 -20 من وصايا الربَ لبني إسرائيل **:**

19 لا تتقاضوا فوائد عمّا تُقرضونه لإخوتكم من بني إسرائيل ...20 أما الأجنبي فأقرضوه بِرِباً...

1215 ميلادية الماغنا كارتا (Magna Carta)

في ذلك العام أصدر الملك جون الماغنا كارتا الشهيرة أو الميثاق العظيم و كان من بين بنوده ما يتعلق بالربا الذي يمارسه اليهود في إنجلترا **:**

" - إذا استدان شخص ما مبلغاً من اليهود وتوفي قبل أن يتمكن من الوفاء به ، فلا يتحمل الوريث فوائد الدين طالما هو قاصر وبغض النظر عن من يتولى أراضيه . وإذا ما تحوّل الدين إلى مسؤولية الملك (التاج) ، فلن يُدفَعَ سوى المبلغ الأساسي المبين في سند الدَين .

- إذا توفي رجل مدين بالمال ليهود ، يمكن لزوجته الحصول على بائنتها (مهرها) ولا تلزم بدفع أي شيء منه وفاءً لدَين زوجها . وإذا ما ترك الرجل أولاداً قُصّر ، فيتم تأمين احتياجاتهم أيضاً بما يتناسب مع مقدار أسهمه في الأراضي، ويوفى الدين من باقي الأسهم ... "

* (10) If anyone who has borrowed a sum of money from Jews dies before the debt has been repaid, his heir shall pay no interest on the debt for so long as he remains under age, irrespective of whom he holds his lands. If such a debt falls into the hands of the Crown, it will take nothing except the principal sum specified in the bond.

* (11) If a man dies owing money to Jews, his wife may have her dower and pay nothing towards the debt from it. If he leaves children that are under age, their needs may also be provided for on a scale appropriate to the size of his holding of lands. The debt is to be paid out of the residue, reserving the service due to his feudal lords. Debts owed to persons other than Jews are to be dealt with similarly.

1275 م المرسوم التنظيمي لليهود (Statutum de Judeismo)

بعد أن استشرَتْ عملياتهم الربوية وغشهم لمصكوكات النقد الذهبية في البلاد ، أصدر الملك إدوارد الأول مرسوم التنظيم الأساسي لليهود ، و بعد أن أصبحت الأراضي سلعة يبادل بها اليهود بالقروض المالية للنبلاء وملاك الأراضي المفلسين . ينصّ التنظيم على عدة فقرات للحدّ من الربا تتعلق بالإقراض والأراضي والسكن وغيرها . استهلّ المرسوم بالمقدمة التالية :

" ولأن الملك قد وجد أن كثيراً من الآثام وحالات انتزاع ملكية الأراضي المُورّثة لأشخاص طيبين قد حدثت في الماضي كنتيجة للربا الذي مارسه اليهود وما تبع ذلك من خطايا كثيرة ؛ ورغم أن الملك وأجداده آنذاك قد استفادوا من اليهود ، فإنه تكريماً للرب ولمصلحة الشعب المشتركة أشترعَ الملك [إدوارد الأول] وأصدر أمراً بأنه من الآن فصاعداً يُمنع أي يهودي من إقراض أي شيء بالربا ، سواء على الأرض أو الآجار أو أي شيء آخر .... "

Forasmuch as the King hath seen that divers evils and the disinheriting of good men of his land have happened by the usuries which the Jews have made in time past, and that divers sins have followed thereupon albeit that he and his ancestors have received much benefit from the Jewish people in all times past, neverthless, for the honour of God and the common benefit of the people the King hath ordained and established, that from henceforth no Jew shall lend anything at usury either upon land, or upon rent or upon other thing.

1290 م طرد اليهود من إنجلترا (Expulsion)

بعد أن أثبت المرسوم التنظيمي الآنف الذكر عدم جدواه في الحدّ من ممارسة الربا ، عندما أشار الملك إلى ذلك بأن اليهود قاموا بالالتفاف على منع الربا إلى ما هو الأسوا وبما اصطلحوا على تسميته " الامتيازات" التي أدت إلى مضاعفة فوائد الربا على رعاياه المسيحيين . فقد أصدر إدوارد الأول في عام 1290 قراراً بطرد جميع اليهود من إنجلترا قبل الأول من تشرين ثاني / نوفمبر من ذلك العام وإلى الأبد . وقد وُزّع في أنحاء المملكة التعميم التالي :

" حيث أن الملك قد حدّد لجميع يهود مملكته وقتاً معيناً لمغادرتها ، طالباً من حاشيته أو غيرهم ألا يعاملوهم إلا بالطرق المعتادة . وقد أمر مُمثلي الملك الإعلان في جميع أنحاء المقاطعات إنه يمنع أي كان من إلحاق الأذى أو الضرر باليهود خلال تلك الفترة . كما أمر بتأمين وثائق عبور

على نفقتهم للمرور عبر لندن مع متاعهم باتجاه الساحل للمغادرة ، شريطة إعادة رهونات المسيحيين إلى أصحابها قبل مغادرتهم . "

Whereas the King has prefixed to all the Jews of his realm a certain time to pass out of the realm and he wills that they shall not be treated by his ministers or others otherwise than has been customary, he orders the sheriff to cause proclamation to be made throughout his bailiwick prohibiting any one from injuring or wronging the Jews within the said time. He is ordered to cause the Jews to have safe-conduct at their cost when they, with their chattels which the king has granted to them, direct their steps towards London in order to cross the *sea,* provided that before they leave they restore the pledges of Christians which are in their possession to those whom they belong.

وحتى بعد طرد اليهود النهائي من إنجلترا بقيت صورتهم النمطية سائدة في أنجلترا على مدى ثلاثة قرون، كمرابين ومُقرِضين وأثرياء جشعين ؛ يعبدون المال ويتجاوزون جميع القيم الإنسانية والأخلاقية إذا ما تعارضتْ مع مصالحهم الشخصية والاقتصادية . وقد عبّر عن ذلك كبار الأدباء والكتّاب ، كما في الأمثلة التالية :

1592 يهودي مالطا The Jew of Malta ، كريستوفر مارلو

وعلى لسان أحد أبطال المسرحية الثري اليهودي باراباس :

من يكرهني فقط لسعادتي ؟
أو من يُبجّل الآن سوى لثرائه ؟
الأفضل ، إذا ، أن أُكرَه كيهودي
من أن يُشفق علي مُسربلاً بفقرِ مسيحي .

1600 تاجر البندقية The Merchant of Venice ، وليام شكسبير

في هذه المسرحية رسم شكسبير أروع صورة لرمزالجشع والعدوانية مجتمعتين في شخصية المرابي شايلوك ، ذلك عندما طالب برَطلٍ من جسد أنتونيو كضمانة لدَين ، لم يتمكّن الأخير من سداده :

رطل الجسد ، الذي أطالب به تمّ شراؤه بثمن مرتفع :
هو لي وسأحصل عليه
وإذا ما أنكرتموه عليَ ، فتباً لقانونكم !

شايلوك شكسبير كما تصوّره الغربيون

1655 وَعْد مناشيه بن إسرائيل إلى كروميل **Menasseh Ben Israel**

بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من طردهم من إنجلترا ، بعث الحاخام مناشيه بن إسرائيل برسالة مطوّلة إلى حامي الكومُنويلث كروميل راجياً السماح لليهود بالعودة إلى إنجلترا واعداً الإنجليز بمكاسب "دينية " و " تجارية " سيَجنونها لقاء عودتهم . فيما يلي أبرز هذه المنافع التي ذكرها مناشيه :

إلى سمو " اللورد الحامي " لكومنويلث إنجلترا واسكتلندا وأيرلندا . خطاب متواضع من مناشيه بن إسرائيل ، الكاهن ودكتور الفيزياء ، نيابة عن الأمة اليهودية .

" ... اتفق بالرأي مع العديد من المسيحيين على أن موعد عودة أمتنا إلى وطنها الأصلي هو قريب جداً . وإن كنتُ اعتقد على وجه الخصوص بأن هذه العودة لن تتم قبل أن تتحققَ كلمات دانييل : " وعندما يكتمل تشتت الشعب المُقدس في جميع المواضع ، عندها تنقضي جميع هذه الأشياء " . وتفسير ذلك ، أنه قبل أن تكتمل جميع الشروط يجب أن يتشتت شعب الله أولاً في جميع أمكنة وبلدان العالم . و نحن نعلم الآن ، أن أمتنا في الوقت الراهن منتشرة في جميع الاتجاهات ، وتسكن في معظم الأصقاع المزدهرة في جميع ممالك وبلدان العالم ، إضافة إلى أمريكا بأجزائها الثلاثة ، باستثناء هذه الجزيرة الجبارة والهامة فقط (أي إنجلترا) . وفي رأيي ، فإن علينا أولاً أن نجد للأمة اليهودية فيها مكاناً قبل أن يأتي المسيح ويعيد أمتنا (إلى فلسطين) .

<u>المكاسب التي تتحقق من الأمة اليهودية</u>

ثلاثة أشياء تجعل من أمة أجنبية (أي الوافدون الأجانب) محبوبة من السكان الأصليين لبلد ما :

1- المكاسب التي يمكن تحقيقها منهم .

2- الإخلاص الذي يبدونه نحو أمراء السكان الأصليين

3- نبل ونقاء دماء الأمة الأجنبية (أي الوافدون) **. وجميع هذه الأشياء متواجدة في أمة اليهود .**

وبالطبع ، سأقنع سموكم بأنكم ستُسرّون إذا ما نظرتم بإيجابية إلى استقبال أمة اليهود ثانية ،أمَة عاشت في زمن سابق في هذه الجزيرة . ولا أعلم قط ما هي المعلومات المغلوطة التي أدَت (آنذاك) إلى معاملتهم القاسية وطردهم .

والمكاسب هي الحافز الأقوى التي يفضلها الجميع قبل أي شيء آخر ، وبالتالي سنتناول هذه النقطة أولاً . ما هو مؤكَد ، أن التجارة كانت ولا زالت الحرفة الأصلية لأمة اليهود . ومردّ ذلك بالدرجة الأولى إلى العناية والرحمة الإلهية . فقد نفى وطرد شعبه من وطنه ولكنه أبقى على رعايته لهم . لقد منّ الله علي اليهود بغريزة طبيعية ، غريزة سمَحتْ لهم ليس بكسب ما هو ضروري لاحتياجاتهم فقط بل بنمو ثروتهم وممتلكاتهم . وتبعاً لذلك ، فكما عليهم أن يكونوا كرماء تجاه أمرائهم ولورداتهم ، فعلى الآخرين دعوتهم للهجرة والإقامة في أراضيهم .

وعلاوة على ذلك ، فهم يدركون أن لا حكمة في سعيهم لامتلاك الأراضي والسلع الثابتة وبالتالي في تقييد وحجز ممتلكاتهم هنا وهناك حيث يتعرضون للكثير من المصائب والطرد والترحال ، وهذا ما دفعهم للعمل في التجارة إلى ذلك الوقت الذي يعودون فيه إلى وطنهم الذي وعدهم به الربّ عن طريق النبي زكريا . وهناك ، لن يتواجد ثانية أي تاجر بينهم في بيت الربّ .

وبما أنه ليس لليهود فرصة العيش في وطنهم لحراثة وفلاحة الأراضي أو القيام بأعمال مماثلة ، فهذا ما دفعهم كلياً لمهنة التجارة واختراع أساليب جديدة فيها ؛ فلا أحد من الأمم يجاريهم أو يضاهيهم في ذلك . ولقد تبيّن أنهم أينما استقروا تبدأ حركة التجارة والاستيراد والتصدير بالازدهار . وهذا ما يمكن مشاهدته في أماكن متعددة . إن أمة اليهود مشتَتة في جميع أنحاء العالم ، وهذه عقوبة فرضها الرب عليهم بسبب وثنيتهم . ومع ذلك ، فهم يثقون ببعضهم البعض وبالتالي فبإمكانهم التفاوض أينما وجدوا . فجميعهم يتاجرون ولديهم معرفة مطلقة بجميع أشكال الأموال والألماس والخمور والزيوت و السلع الأخرى .

ومن خلال حركة الاستيراد والتصدير تتحقق عادة خمس فوائد هامة (لبريطانيا) :

- زيادة في الجمارك والرسوم العامة الناجمة حركة الدخول والخروج
- عمليات النقل وشحن البضائع من بلدان بعيدة
- انتاج المواد بكميات كبيرة ولجميع الوظائف ، مثل الصوف ، الجلد ، الخمور ، المجوهرات ، اللؤلؤ وغيرها من السلع .
- تصريف وتصدير العديد من المنتوجات

- التجارة والمفاوضات التبادلية والتي تؤدي إلى السلام بين الأمم المتجاورة وذات الفائدة الكبرى للمواطنين "

وفي وقت لاحق من العام نفسه (1655) عُقِدتْ عدة اجتماعات في لندن حضرها تجار ومحامون ورجال دين لمناقشة إعادة دخول اليهود إلى إنجلترا ، إلا أن نتائج تلك الاجتماعات لم تتوصَل إلى الموافقة على عودتهم . ومع ذلك ، يبدو أن اليهود قد تسللوا بعد ذلك إلى إنجلترا بشكل مخادع ، وأقترن ذلك بغضَ الطرف عنهم والتساهل التدريجي من قبل الإنجليز ؛ ويذكر المؤرخ اليهودي لوسيان فولف مصدر هذه الجالية على النحو التالي :

" بعد طرد اليهود من إسبانيا على يد فرديناند وإيزابيلا (1492) بقي هناك فريق أقل التزاماً من اليهود الأغنياء الذين لم يكونوا راغبين بالتضحية بأراضيهم وقصورهم . فقد اعتنق هؤلاء المسيحية ، إلا أن تحولهم إلى هذه الديانة كان كاذباً ، إذ بقوا متمسكين بيهوديتهم بشكل سري على مدى قرنين . وانتشرهؤلاء "اليهود-المُتخفون " (Crypto-Jews أو Marranos) بعد ذلك شيئاً فشيئاً في تنكرهم هذا إلى مدن وبلدان مختلفة ، وتشكلت من خلالهم أيضاً الجالية اليهودية في إنجلترا "

القرن التاسع عشر

يتّضح من كتابات كبار الروائيين الإنجليز في هذه الحقبة من التاريخ أن " الطبع يغلب التطبّع" ، وأن العائدين الجدد لا يمكنهم التخلي عن عادة الربا والخداع وابتزاز الآخرين . فإضافة إلى شخصيات باراباس وشيلوك الآنفتي الذكر ، ابتدع الروائيون شخصيات يهودية جديدة جشعة وعدوانية في كتاباتهم ، أبرزها :

- المُرابي مردخاي في رواية " الغائب The Absentee " لماريا إدجورث ، 1812 .
- المُخادع إسحق في رواية " إيفانهو Ivanhoe " للسير والتر سكوت ، 1819 .
- النشال فيجين في رواية " أوليفر تويست Oliver Twist " لتشارلز ديكنز ، 1837 .
- المُحتال مالموت في رواية " أسلوب حياتنا الآن The Way We Live Now" لأنتوني ترولوب ، 1875 .
- المُستغِل سفينغالي في رواية " تريلبي Trilby " لجورج دو موربيه ، 1894 .

1881 م بعد اغتيال قيصر روسيا الإسكندر الثاني وضلوع اليهود في جريمة الاغتيال ، حصلت أعمال شغب وفوضى بين الفلاحين واليهود في الإمبراطورية الروسية ، تلتها عمليات نزوح يهودي

واسعة إلى الغرب على مدى العقود التالية . وعندما بدأت أعداد المهاجرين تزداد في بريطانيا ، سعَتْ السلطات هذه المرة ليس إلى طردهم بل إلى إعادة ترَحيلهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد عبَرت مقالة في صحيفة النيويورك تايمز (16 July,1882) عن الخطة هذه على النحو التالي :

" العبرانيون من روسيا ، الاستعجال البريطاني في إرسال اللاجئين إلى هذا البلد : ... إن الشعب الأمريكي مستعدَ لتحمل المسؤولية تجاه اللاجئين . ويبدو أن السيد جون بُلّ (وهي تسمية كاريكاتورية لبريطانيا على غرار العم سام الأمريكي !) قد جمع مبلغاً كبيراً من المال لزيادة عدد سكاننا ، إلا أنه غير معني بما سيحدث لهم بعد ذلك ... فمنذ مطلع هذا العام ، يأتي اليهود الروس بمعدل 2000 شخص في الشهر ، ويقال أن هناك ثلاثة ملايين يهودي في بولندا وروسيا في الانتظار . وإذا ما بقيت أمريكا كملجأ لإستقبال من يرسلهم السيد جون بُلّ ، فسيكون استقبالنا لهؤلاء الساميين بلا نهاية "

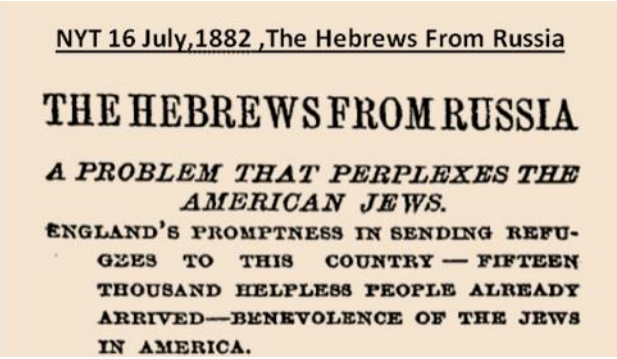

NYT 16 July,1882 ,The Hebrews From Russia

THE HEBREWS FROM RUSSIA

A PROBLEM THAT PERPLEXES THE AMERICAN JEWS.

ENGLAND'S PROMPTNESS IN SENDING REFUGEES TO THIS COUNTRY — FIFTEEN THOUSAND HELPLESS PEOPLE ALREADY ARRIVED—BENEVOLENCE OF THE JEWS IN AMERICA.

ورغم هذه المحاولة ، فقد قرّر كثيرٌ من هؤلاء المهاجرين البقاء في بريطانيا والتجمَع في المدن الكبيرة ، حيث ارتفعت أعدادهم من حوالي 100000 في عام 1900 إلى 225000 في عام 1905 ، وهو العام الذي صدر فيه قانون الأجانب Aliens Act ، القانون الذي احتجَت عليه بشدة لجنة مندوبي لندن ليهود بريطانيا :

" ... في الحقيقة إن التحريض قد أدى إلى قانون الأجانب الجديد والموجَه أساساً إلى الروس والبولنديين (وهم يهود) ".

1917 بلفور والحلّ الثالث

وبما أن العالم كان على أعتاب تحولات كبيرة ، وبخاصة حول " المسألة الشرقية " ومصير الإمبراطورية العثمانية ، فكان أن التقت رغبة الصهيونية العالمية في الاستيلاء على فلسطين وإقامة وطن قومي لليهود فيها مع رغبة الإنجليز في " التخلص مرة أخرى من اليهود المُقيمين بينهم "

بأسلوب جديد يختلف عما اتبعه أسلافهم من طرد أو تهجير إلى أمريكا . وهكذا ، صدر في الثاني من نوفمبر/ تشرين الثاني سنة 1917 النص التالي عن وزارة الخارجية البريطانية :

" إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي، وستبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر ."

ويبدو أن الحلّ الذي توصل إليه السيد بلفور للتخلص من يهود بريطانيا العظمى لم يكتب له النجاح تماماً . إذا تدلّ الإحصائيات على أن أعداد اليهود في المملكة لم يتراجع وحتى بعد إنشاء الوطن القومي في فلسطين عام 1948 . ولو قُدّرَ للبريطانيين أن يقرأوا ما كتبه اليهودي الروسي يهوذا بينسكر قبل ذلك في كُتيَبه " التحرر الذاتي Auto Emancipation " عام 1882 :

" ... وإنني لا أقترح هنا هجرة موحّدة لجميع الناس . فأعداد اليهود قليلة نسبياً في الغرب ويشكلون نسبة صغيرة من عدد السكان ، ولهذا السبب فقد تيسّرت أوضاعهم إلى حد ما وحتى أنهم تجنّسوا وتأقلموا ، فيمكن لهم مستقبلاً البقاء حيثما هم . كما يمكن للأثرياء أيضاً البقاء حتى في البلدان التي لايرحب فيها باليهود عن طيب خاطر "

فلربما لم يسارع البريطانيون إلى التبرَع بفلسطين عبر وعد بلفور .

mhs Oct.,2016